الحسناء

الجزء الثالث — المجلد الثاني

بيروت شهر ايلول سنة ١٩١٠

ماري سمرفل

عالمة عظيمة جمعت بين عقل اعظم الفلاسفة وذكاء اذكى النوابغ وجمال ابدع النساء. واتحفت العالم بمؤلفات عظيمة ادهشت بها اعاظم العلماء. رياضية طبيعية خدمت العلم وانفقت حياتها في سبيله وحوت من اللطف وكرامة الاخلاق ما يعدّ قدوة للسيدات ومع كثرة اشغالها العلمية ما اهملت تربية اولادها وتدبير منزلها ولا ترفعت بمعارفها الغزيرة على الناس

ولدت ماري في جدبرو في اسكوتلندا سنة ١٧٨٠ وبدت منها دلائل النجابة والادراك في سنّ الحداثة فتعلمت اللغة الافرنسية مع لغتها الانكليزية وما لبثت ان ارتشف كؤوس العلم ورغبت فيها وانما لم يكن لها في بيتها من يساعدها عليه وتجهد لها سبل اقتباسه او يدلها عليها اخصها علم الفلك ومراقبة اجرام السماء

لان اباها السر وليم فيرفكس كان اميرالاً في الاسطول الانكليزي تبعده اشغاله عن البيت وتخدمه من العناية بالاولاد وامها ترعى ان واجبات المرأة محصورة في اعمال المنزل ومعرفة الغناء والرقص والتكلم باللغة الافرنسيه . ولهذا كانت تنهى كريمتها عن تطلب العلوم العالية وتمنعها من الدرس والمطالعة بالقوة . وقد

اقامت الخادمات مراقبات عليها يشكونها اذا قرأت في الليل فكانت الفتاة تتغافلهن خلال منامهن وتطالع فاستدلت امها على ذلك من احتراق الشمع في غرفتها فامرت بان لا يبقى فيها بعد وقت النوم شيء من ادوات النور

ولكن العزائم الكبيرة والنفوس العظيمة لا يقف بوجهها شيء عن بلوغ مرادها ولا يعيقها عنه مانع بشري مهما اشتدت المعاكسات وهكذا فازت ماري بامانيها وصارت من اعظم العالمات الطبيعيات في العالم ان لم تكن اعظمهن على الاطلاق

فاتفق مرة وهي في الرابعة عشر من عمرها ان رأت في جريدة ازياء عند صديقة لها مسائل حسابية يتخلل ارقامها حروف هجائية لم تفهمها فسألت صديقتها عن معناها فاخبرتها بانها نوع من الحساب يسمى الجبر فمالت ماري الى معرفة هذا العلم ولم تكن قد سمعت به من قبل . ولما عادت الى البيت بحثت بين كتب ابيها عن كتاب ينيلها بغيتها فوجدت كتاباً في علم سلك البحار فظنته لاول وهلة في الجبر لما فيه من الارقام والحروف . وما اشد ما كانت خيبتها لما رات نفسها غلطانة

ولكنها لم تستسلم الى اليأس بل ظلت تفكر في البحث عن كتاب يفي بالغرض المطلوب الى ان سمعت مرةً مصوراً يقول لسيدة تتعلم علم الفلك عليك بكتاب اقليدس في الهندسة فانها لازمة لمعرفة هذا العلم فانتبهت ماري لكلامه واستفادت منه وودت لو ترى هذا الكتاب لعلها يعاونها على فهم كتاب الملاحة الذي وجدته في مكتبة ابيها ودرس الفلك فعزمت على اقتنائه ولما لم تتمكن من الحصول عليه بسهولة اذ لم تستطع مشتراه لا بنفسها ولا بواسطة اهلها او خدمها للسبب الذي بيناه من ميل والدتها عن هذه المعارف السامية ولكنها استحصلت عليه اخيراً مع كتاب اخر في الجبر من احد المعلمين الذي

ادرك مبلغ استعدادها وفهم قوة نفسها فجارى ميلها الطبيعي ونشطها على ماترو
وصارت تطالع الكتابين وتدرسهما خفية عن امها ومراراً تحيي الليالي برمتها وهي منكبة على المطالعة والدرس . فكانت تعين عدداً من القضايا الهندسية تدرسها في كل ليلة وتبرهنها ايضاً ولو لزمها الامر لاحياء الليل برمته . وبلغ من حسن درسها لكتاب اقليدس وكثرة مراجعتها له ان صارت قادرة على فهم قضاياه جيداً وتلاوة معانيه غيباً وهو مؤلف من ستة مجلدات

ولما رات والدتها شدة اهتمامها باقتباس المعارف وتوفرها على تحصيلها برغبة وتشغف ومواظبتها على التعمن والدرس باجتهاد ونشاط صارت تتساهل معها وتغض النظر عنها الى ان تحررت من رقها عندها وامست زوجة فاماً

وما اكتفت ماري بالمعارف الرياضية فقط بل طمحت نفسها الى الطبيعية فدرستها جيداً وشيدت عليها اركان شهرتها وتعلمت مع ذلك اللغتين اليونانية واللاتينية وطالعت كتب قيصر وكسنفون وهيرودوتس وغيرهم من مشاهير المؤلفين . واتقنت الانكليزية والفرنسية ولم تدع شيئاً مهماً مما كتب بهما في الرياضيات والطبيعيات الا وطالعته فضلاً عن مراقباتها الدقيقة للاجرام السموية التي كان لها فيها رغبة شديدة وعناية فائقة

على انها لم تبق عزباء كل حياتها وتتفرغ للمعارف دون سواها بل تزوجت مرتين ورزقت عدة بنين وكان زوجها الاول قنصلاً لدولة روسيا عاشت واياه ثلاث سنوات فقط ولدت فيها ولدين ولما مات عادت الى بيت ابيها بولديها ثم اقترنت بابن خالها الدكتور سمرفل وانتقلت مع عائلتها الى لندن واخذت تسير في سبيل العظمة والشهرة وكان قرينها الثاني محباً للمعارف ملتشطاً لها عليها فافادها كثيراً بهذا الامر وكان لها عوناً على النجاح

ولم تهمل واجباتها المنزلية خصوصاً بعد ان صارت زوجة واماً عن متابعة

الدرس والبحث والتعمق في العلوم الرياضية والطبيعية بل انها ارتقت فيها الى ان بلغت منها اصعب المسائل وتناولت مواضيع مهمة يعجز عنها حتى بعض العلماء من ذلك بحثها في الفعل الكهربائي الذي في اشعة الطيف البنفسجية وما اشبه

ولكنها لم تنشر من ابحاثها شيئاً الا عندما بلغت من عمرها الرابعة والاربعين عند ذلك اشتهر امرها بين اهل العلم فعدّوها من جملة العلماء الضليعين المحققين وبلغ من اعتبارهم لها وتقديرهم اياها حق قدرها ان عهد اليها اللورد بروم السياسي الخطيب ان تشرح برسالة على حدة فلسفة لابلاس الفلكي الفرنساوي صاحب الرأي السديمي المقررة في كتابه الاجرام السموية فاجابت طلبه والفت كتاباً كبيراً اثبتت فيه اراءها العلمية وابدت من البراعة والتدقيق في تأليفه ما ادهش اعاظم العلماء فقال فيه السر يوحنا هرشل الفلكي الانكليزي مخترع المرقب المعروف باسمه ومكتشف السيار اورانوس — ان هذا الكتاب لم يكتب لاهل زمانه بل للآتين بعدهم باعوام اوقد نال كتابها حظاً وافراً لاهميته وتفرده فعزم اللورد بروم على طبعه مع عدة كتب مهمة واذ راء اسمى من تلك الكتب كلها طبعه على حدة سنة ١٨٣١ فجعلته مدرسة كامبردج الجامعة من جملة دروسها المطلوبة من التلاميذ المتسابقين لنيل الدرجات العليا والشهادات الممتازة

وكأن هذا الفوز الذي نالته بهذا الكتاب قد نشطها على متابعة التأليف فالفت كتابها المشهور في علاقة العلوم الطبيعية وطبعته سنة ١٨٣٤ فانتشر بسرعة وراج كثيراً وطبع بمدة قصيرة تسع مرات فاستعظمت دولة الانكليز هذا الامر وكافأت المؤلفة عليه بان عينت لها راتباً سنويا اكثر من اربعين الف غرش جزاء خدمتها للعلم وانتخبها المجمع الفلكي الملكي عضو شرف فيه وهي المرأة الثانية التي

فازت بهذه العضوية والاولى كارولين هرشل (المنوه بها في الحسنا، الثانية صفحة ٤٥) وضموا اليها تمثالاً نقشه اشهر نقاشي الانكليز وضموه في باحة الجمعية الملكية

وهذا مما زادها بلاريب نشاطاً واجتهاداً في التأليف فانصبت عليه وفازت فيه واشهر كتبها كتاب الجغرافيا الطبيعية نشرته ١٨٤٨ وطبع مرارا عديدة وترجم الى عدة لغات وما برح صاحب المقام الاول بين الكتب التي في موضوعه الى اجل بعيد. وفيما هي تهيئه لطبع صدر كتاب الكون للبارون همبلت العلامة الالماني فعمدت الى كتابها لتحرقه لظنها انه لم يبق اليه حاجة ولا منه نفع فصدها قرينها واستبهلها ريثما تستشير اصدقاءها فاستحسنت رأيه واستطلعت رأي السر يوحنا هرشل فاشار عليها بطبعه فطبعته وكان من امره ما كان. واسلت مرة نسخته منه (من غير الطبعة الاولى) الى البارون همبلت مؤلف كتاب الكون فكتب اليها يقول — اني سحرت بكتابك البديع واستفدت منه كثيراً منذ طبعته الاولى فانك ايتها السيدة قد زدت امورا كثيرة في كل المطالب الطبيعية على ما اشتهرت به في اعلى مطالب الرياضيات وقلت بغيرك ولا اعرف كتاباً في الجغرافيا الطبيعية بلغة من اللغات يستحق ان يقابل بكتابك . وكتابك في علاقة العلوم الطبيعية له عندي المقام الاول بعد كتابك في نظام الاجرام السماوية ولذلك مؤلف كتاب الكون يحيي جغرافيتك الطبيعية خير تحية

واخر كتاب الفته كتابها المشهور في العلم المكرسكوبي والمدقيق جمعت فيه زبدة الآراء الحديثة بهذا الفن وكانت حينئذ قد ناهزت الثمانين من عمرها وعدا ذلك فقد الفت عدة كتب ورسائل غير التي ذكرناها وكلها في المواضيع العلمية الدقيقة التي لا يقوى على البحث فيها الا نخبة الفلاسفة والعلماء كـ (مجذب اشياء الكرة التحليلي) و (شكل الارض ودورانها) و (مد الاوقيانوس والهواء) و (المنحنيات من الدرجات العليا) وما ماثلها مما

يشهد لها بالامتياز في كل ما بحثت فيه

ولذلك سمتها جريدة تايمز الانكليزية فريدة العصر بل فريدة الاعصر كلها. وقالت فيها مجلة المقتطف معتمدة على سيرتها انها خلدت لها اسماً لم تدركه امرأة قبلها بل قل من فاقها فيه من الرجال

ولا غرو اذا فازت بهذا الاسم بعد تلك التآليف العظيمة الخالدة والانسان مذكور باعماله . ولا يحصد الا من زرعه . وحسبها ما نالته في حياتها من رفعة المقام والمجد والاكرام . من عناية الدولة بها واحترام الناس لها وتعظيمهم اياها . وكان العلماء يجلونها كثيراً ويتهافتون على اطلاعها على اكتشافاتهم العلمية قبل اعلان امرها للغير مثل الاثري الدكتور بن مكتشف بعض الآثار المصرية والبصري ولستون مكتشف الخطوط السوداء في الطيف المنسوبة الى فرونهوفر الالماني لكثرة بحثه فيها . وكان هرشل يريها السدم والنجوم المزدوجة بمرقبه الكبير وهو اكبر مرقب يومئذ في العالم

وكانت مع كل ذلك مع اشتغالها بالتأليف والتصحيح والبحث والدرس — كانت زوجة فاضلة واماً حكيمة تراعي حسنات الزوج وتعتني مزيد العناية بالبنين فتعلم اولادها ثلاث ساعات في اليوم وتدبر بيتها ولا تتغاضى حتى ولا عن الخياطة والتطريز وما اشبه بل تخيط ثياب العائلة وتقوم بكل لوازم مهام واجبات المنزل . وتطالع اشهر الجرائد والكتب على اختلاف انواعها من العلميات الى الشعر الى الروايات وتصور رسوماً متقنة وتمارس الموسيقى وترقص في السهرات العائلية وتزور اصدقاءها وصديقاتها وتستقبل الزائرين . وامتازت بانها لم تكن تتكلم شيئاً عن نفسها ولا تحاول ابداً معارفها ولا تتعرض للابحاث العلمية خلال الاحاديث فضلاً عن انسها وملازمة البشاشة لها مع لطفها ووداعتها ودماثة اخلاقها

وعاشت ماري اثنين وتسعين سنة وما برحت مداومة التأليف الى حين